

كعب بن مالك*

التعريف به :

هو كعب بن مالك بن أبي كعب عمر بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة ، أنصاري خزرجي سلمى عقبي مدني إحدى (وسلمى نسبة إلى قومه بني سلمة ، وعقبى :نسبة إلى العقبة حيث كان كعب ممن شهدوا بيعه العقبة الثانية وبايعوا النبي ﷺ ، والأحدي : نسبة إلى أحد فلقد شهد أحدا وأبلي فيها بلاء حسنا". وكنيته: أبو عبد الله وأبو عبد الرحمن ، والكنية الأولى هي التي أجمع عليها المؤرخون فلقد كناه بها النبي ﷺ .

ولد كعب في المدينة المنورة ، ولا نعلم علي وجه اليقين سنة مولده بيد أننا إذا عرفنا أن وفاته كانت سنة خمسين للهجرة ، وأنه عاش سبعا وسبعين سنة فإنه يمكن القول إنه ولد سنة سبع وعشرين قبل الهجرة تقريبا . كان كعب من القلة الذين يعرفون القراءة والكتابة في الجاهلية ، وقد تفتحت مواهبه الشعرية منذ جاهليته ، وذاعت شهرته في مجال الشعر حتى بلغت مسامع النبي ﷺ ، وكان بالإضافة إلى ذلك راويا للحديث النبوي الشريف " روي ثمانين حديثا"

كان كعب قوي الحجة صادق البرهان واضح البيان له قدرة علي الجدل والإقناع ، ولا غرابة في ذلك فهو من أسرة نابهة الشأن مشهورة بالشعر والفروسية فلقد كان أبوه فارسا شاعرا ، وعمه قيس كان فارسا شاعرا أيضا وأما أمه (ليلي بنت يزيد بن ثعلبة) فهي من بني سلمة

* انظر هذا الموضوع في :

- ١- الأغاني / ج١٥ ، ص٢٦.
- ٢- طبقات فحول الشعراء السطر الأول / ص٢٢٠.
- ٣- كعب بن مالك الأنصاري/ د. محمد علي الهاشمي / ط١ السعودية سنة ١٩٨٥ .
- ٤- كعب بن مالك الأنصاري / د. عبد المنعم أحمد يونس ، ط أولي - الأمانة - مصر سنة ١٩٨٦.
- ٥- ديوان كعب بن مالك الأنصاري/ تحقيق وشرح: مجيد طراد/ ط دار صادر بيروت/ ط١ سنة ١٩٩٧م.
- ٦- معجم الشعراء المرزباني / ص٢٢٩ / ط النخائر / عدد ٩٣ / سنة ٢٠٠٣ م .
- ٧- زهر الأدب / الحصري / ج١ / ص٤٢ / ط دار الجبل - بيروت - طبعة رابعة.

المعروفين بالفروسية والشجاعة ، وشهد له النبي بذلك فقال أنت تحسن صفة الحرب .

والحق أن بيت كعب قد عرف بالشعر وهذا ما يشير إليه الأصفهاني في قوله " ولكعب بن مالك أصل أصيل وفرع طويل في الشعر : ابنه عبد الرحمن شاعر وابن ابنه بشير بن عبد الرحمن شاعر ، ومعن بن عمر بن عبد الله بن كعب شاعر ، وعبد الرحمن بن عبد الله شاعر ومعن بن زهير ابن كعب شاعر وكلهم مجيد مقدم"^(١) وكان والده شاعرا في الجاهلية ، وعمه قيس شاعرا أيضا .

كان كعب من الأنصار الأوائل الذين دخلوا الإسلام ، وأحد الثلاثة والسبعين الذين شهدوا بيعة العقبة الثانية (السنة الثالثة عشرة من البعثة) وبايعوا النبي ﷺ .

مكاتبه عند النبي :

لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة توثقت الصلة بينه وبين كعب وازداد كعب من النبي قريبا ، وقد عهد له ﷺ بعدد من المهمات منها إرساله لتخطيط حدود حرم المدينة وتوليه صدقات أسلم وغفار سنة ٩ هـ ، ومنها مناداته في حجة الوداع في الناس أن رسول الله ﷺ يقول : إن أيام منى أيام كلها أكل وشرب وذكر لله .

وقد شهد كعب مع النبي ﷺ الغزوات والمشاهد كلها إلا بدرًا وتبوكًا وقد آخى النبي بينه وبين طلحة بن عبد الله وقيل الزبير بن العوام . لقد احتل كعب منزلة عالية عند رسول الله ﷺ فلقد كان فارسا مغوارا وبطلا شجاعا في الغزوات التي اشترك فيها وكان شاعرا مجيدا مدافعا عن النبي والمسلمين ، وهو أحد الشعراء الثلاثة الذين كونوا فريقا مدافعا عن الإسلام والنبي والمسلمين (حسان وكعب وعبد الله ابن رواحة) ، وقد تميز شعره بتخويف الكفار من الحرب .

(١) الأغاني / ج ١٥ ، ص ٢٦ .

وكان النبي ﷺ يحض هؤلاء الشعراء الثلاثة علي الرد علي المشركين وتفنيد مزاعمهم ويرى أن جهادهم بالكلمة لا يقل عن الجهاد بالسيف .
ومما يدلنا علي المكانة التي تبوأها عند النبي صلي الله عليه وسلم أنه طلب منه مرة أن ينشد الشعر فأنشده وكلما أنشده يقول له النبي " إيه" ^(١)
"^(١) ومرة أخري يقول له النبي ﷺ " يا كعب ما نسى ربك وما كان منسيا منسيا بيتا قلته ...قال كعب وما هو يا رسول الله ؟ فقال أنشده يا أبا بكر فقال : الذي تقول فيه :

ز عمت سخينة أن ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب (٢)

وكان كعب يسر بتقويم النبي ﷺ ونقده لشعره بل كان يفتخر بذلك فيقول : ما أعان رسول الله ﷺ أحدا في شعره غيري .

كان كعب شاعرا مجاهدا بلسانه ومحاربا بسيفه ، لم يتخلف عن غزوة من الغزوات كما ذكرنا إلا غزوتي بدر وتبوك ، أما بدر فلأنه لم يكن هناك نصير للحرب فلقد جمع الله بين المسلمين والأعداء علي غير موعد ، ولذلك لم يعاتبه النبي ﷺ .

أما تبوك فقد تخلف عنها دون عذر مقبول فلما عاد النبي ﷺ من تلك الغزوة - وكان قد تخلف عنها بضعة وثمانون رجلا - جاءوا يعتذرون للنبي والنبي يستغفر لهم إلا كعبا وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع الذين صدقوا الحديث ولم يتمحلوا الأسباب فأمر النبي ﷺ بمقاطعتهم حتى مرت عليهم خمسون ليلة ضاقت فيها عليهم الأرض بها رحبت وإذا بالوحي ينزل علي رسول الله ﷺ بقرآن يتلي : " لقد تاب الله علي النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم وعلي الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ..."^(٣)

(١) الأغاني / ج ١٥ ، ص ٢٩ .

(٢) انظر / طبقات فحول الشعراء / ج ١ ، ص ٢٢٢ . وانظر معجم الشعراء ، ص ٢٣٠ .

(٣) سورة / التوبة / آيه ١١٩ . وانظر القصة في طبقات فحول الشعراء وكتب التفسير .

اتسم كعب بعدة صفات أهمها الإيمان والصدق والشجاعة والجرأة والكرم والسماحة والشهامة والاستعلاء علي الدنيا وعدم الغرور بمباهجها ومتاعها كما اتسم بالحلم والعلم والفصاحة وحضور البديهة والذكاء واللباقة وحسن التصرف وحصافة الرأي وبعد النظر والأدب الجم والوفاء والإنصاف .

مكانته الأدبية :

احتل كعب مكانة أدبية رفيعة فهو شاعر مخضرم وهو أحد الثلاثة الذين أوقفوا شعرهم على الدفاع عن الإسلام والرسول الكريم ﷺ وهو يحتل المرتبة الثانية بعد حسان في الشعر ؛ وقد جعله ابن سلام كذلك وقال عنه " وكعب بن مالك شاعر مجيد " (١) وشهد له الرسول ﷺ حينما دعاه مستنشداً شيئاً من شعره إذ قال له أنت تحسن صفة الحرب " (٢) وقال مرة " إنك لحسن الشعر " (٣)

ومما يدلنا علي مكانته الأدبية أن معاوية جلس مرة فقال لجلسائه أخبروني بأشجع بيت وصف به رجل قومه فقال روح بن زنباع: قول كعب مالك :

نصل السيوف إذا قصرنا بخطونا قدما ونلحقها إذا لم تلحق " (٤)

ويقال إن أفخر بيت قالته العرب هو قول كعب :

وببئر بدر إذ يرد وجوههم جبريل تحت لوائنا ومحمد (٥)

ويشهد له الرسول مرة علي مدي تأثير شعره في المشركين إذ يقول والذي نفسي بيده لهي أشد عليهم من رشق النبل " وسبب ذلك القول أن الرسول ﷺ كان في سفر فشد " ناقته بزمامها حتى وضعت رأسها عند مقدمة الرجل إذ قال يا كعب بن مالك : احد بنا ! فقال كعب :

(١) طبقات فحول الشعراء / ج ١ ، ص ٢٢٠ .

(٢) زهر الآداب / ج ١ / ص ٦٢ .

(٣) الأغاني / ج ١٥ / ص ٢٨ .

(٤) الأغاني / ج ١٥ ، ص ٢٩ ، وانظر معجم الشعراء ، ص ٢٣٠ .

(٥) معجم الشعراء ، ص ٢٣٠ .

قضيـنا من تهامة كل حق وخبير ثم أجمعنا السيوفـا
نخبرها ولو نطقت لقالـت قواطعـن دوسا أو ثقيفا^(١)

فقال النبي ﷺ هذا القول : والذي نفسي بيدي لهي أشد عليهم من رشق النبل ، ولما سمعت دوس شعر كعب هذا أسلمت فرقا " خوفا " .
وسماه ابن كثير " شاعر الإسلام "^(٢)

موضوعات شعره :

نظم كعب بن مالك في أغراض كثيرة أهمها ما يأتي :

١- الفخر :

الفخر عنده نوعان : ذاتي فردي ، وجماعي ، والذاتي هو الذي تغنى فيه بخصاله وأخلاقه ونسبه وحسن شجاعته وهو أبيات قليلة في شعره ومن ذلك قوله :

أنا ابن مباري الريح عمرو بن عامر نموت إلي قحطان في سالف الدهر^(٣)
الدهر^(٣)

وقوله الذي يرد فيه على " مرحب اليهودي يوم خبير :

قد علمت خبير أني كعب مفرج الغما جرى صلب
إذا شبت الحرب تلها الحرب معي حسام كالعقيق غضب^(٤)

وأما الفخر الجماعي فلقد كان فيه عالي الصوت فخورا بالمسلمين وانتصاراتهم علي المشركين ، متغنيا بالأمجاد الجماعية مصورا شرف المسلمين ومشيدا بشجاعتهم وإيمانهم ، مسجلا صفحات جهادهم متحدثا عن دور النبي ﷺ ، وموضعا دور الأنصار في المعارك الإسلامية ، يقول :

وفينا رسول الله والأوس حوله له معقل منهم عزيز وناصر
وجمع بني النجار تحت لوائه يمشون في الماذي والنفع نائر^(٥)

(١) زهر الأداب / ج ١ ، ص ٦٥ .

(٢) البداية والنهاية ابن كثير / ج ٨ ، ص ٤٨ .

(٣) الديوان / ص ٥٣ .

(٤) الديوان / ص ٢٣ .

(٥) الديوان / ص ٤٧ .

ويقول متفخرا بانتصار المسلمين في الجولة الأولى يوم أحد (وقبل في يوم بدر).

سائل قريشا غداة السفح من أحد ماذا لقينا وما لاقوا من الهرب
كنا الأسود وكانوا النمر إذا زحفوا ما إن نراقب من آل ولا نسب (١)

ويجب أن نلاحظ أن افتخار كعب بقوة المسلمين وشجاعتهم هو افتخار بصدق عقيدتهم وقوة إيمانهم وأن هذه الشجاعة إنما هي مستمدة من الإيمان بالله عز وجل ولذلك نجده يتخذ من نصر الله للمسلمين مجالا لفخره على المشركين ليبين لهم قدرة الله سبحانه وتعالى وصدق هذا الدين الحنيف .

٢- المدح :

جاء المدح في شعر كعب قليلا وكان معظمه موجها للنبي ﷺ ممتزجا بالفخر بالرسالة المحمدية وبحب الرسول ﷺ ، ولعل أهم ما مدح كعب به النبي ﷺ وهو الدور الذي قام به من جمع شتات العرب ولم شملهم وتوحيد صفهم وإنقاذهم من براثن الشرك وانتشالهم من وهدة الضلال والفساد إلى طريق الخير والرشاد وإصلاح أمرهم بالإضافة إلى ما اتسم به النبي ﷺ من عز وشرف وصدق وأصالة وأمانة وشجاعة وقيادة حكيمة رشيدة وكرم ، وعدل ومعجزات باهرات ، يقول :

الحق منطقته ، والعدل سيرته فمن يجبه إليه ينجح من تبب (٢)
ويقول :

نبي له في قومه إرث عزة وأعراف صدق هذبها أرومها (٣)

ويقول :

(١) الديوان ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٢) الديوان / ص ٢٥ .

(٣) الديوان ، ص ٩٤ .

فإن يك موسى كلم الله جهرة
فقد كلم الله النبي محمدا
علي جبل الطور المنيف المعظم
علي الموضع الأعلى الرفيع المسوم
صغار الحصي في كفه بالترنم^(١)

ولم ينس أن يوجه شيئا من مدائحه إلي بني هاشم ونقباء العقبة يقول
مادحا بني هاشم :

قرم علا بنيانه من هاشم فرعا أشم وسوودا ما ينقل
قوم بهم عصم الإله عباده وعليهم نزل الكتاب المنزل^(٢)
ويقول في أهل العقبة :

أولاك نجوم لا يغبك منهم عليك بنحس في دجي الليل طالع^(٣)

٣- الهجاء :

لكعب هجاء كثير موجه إلي أعداء الدعوة ، وفيه يفند مزاعم
المشركين ويرد علي أباطيل الحاقدين ، ويعيرهم بمخازيهم .
لقد هجا مشركي مكة واستطاع أن يوجعهم ويذلهم بهجائه وهجا
اليهود من بني النضير وبني قريظة كما هجا بعض القبائل المشركة
المعاندة من مثل بني لحيان ، وهجا بعض رءوس الشرك وتصدى للشعراء
الذين حاولوا أن يؤذوا الإسلام والمسلمين بأشعارهم من مثل عبد الله بن
الزبيري ، ومن هجائه في اليهود قوله :

لقد خزيت بغدرتها الحبور
وذلك أنهم كفروا برب
كذاك الدهر ذو صرف يدور
عزیز أمره أمر كبير
فلما أشربوا غدرا وكفرا
وحاد بهم عن الحق النفور
أري الله النبي برأي صدق
وكان الله يحكم لا يجور^(٤)

(١) الديوان ، ص ٩٦ .

(٢) الديوان ، ص ٨٨ .

(٣) الديوان ، ص ٥٧ .

(٤) الديوان ، ص ٤٤ - ٤٥ ،

ويقول في هجاء مشركي مكة :

نسيتم ضربنا بقليب بدر
غداة ثوى أبو جهل صريعا
وعتبه وابنه خرا جميعا
غداة أتاكم الموت العجيل
عليه الطير حائمة تجول
وشيبة عضه السيف الصقيل^(١)
الصقيل^(١)

ويقول في هجاء ابن الزبيرى :

خبيثا تطيف بك المنديات
تجست تهجو رسول الملى
تقول الخنا ثم ترمي به
مقيما علي اللؤم حيننا فحيننا
ك قاتك الله جلفا لعينا
نقي الثياب تقيبا أمينا^(٢)
أمينا^(٢)

وله بالإضافة إلي ذلك مناقضات هجائية يرد فيها علي شعراء المشركين وقد طبعت هذه النقائض بطابع الهجاء والفخر والتحدي وكانت سلاحا حادا وسهاما مسمومة صوبها إلي هؤلاء الشعراء ، وهي تبلغ إحدى عشرة نقيضة منها أرجوزتان وجملتها مائة وخمسون بيتا .

وأهم نقائضه هي التي يرد فيها علي ضرار بن الخطاب وهيبرة بن أبي وهب وعبد الله بن الزبيرى وتتسم هذه النقائض عامة بالحديث عن الإسلام والرسول ﷺ وبطولات المسلمين والإشادة بالانتصارات التي أحرزها المسلمون كما تشير إلي صبرهم في القتال وبسالتهم كما تتسم بتعدد الموضوعات ونقض الخصوم والرد عليهم ويلحظ عليها التأثير بالإسلام ومبادئه الكريمة وصدق الشعور وبالأسلوب الرصين والبعد عن المقدمات . ومن أطول هذه النقائض نقيضته التي يرد فيها علي هيبرة بن أبي

وهب (٤٩ بيتا) والتي يستهلها بقوله :

(١) الديوان / ص ٨٢ .

(٢) الديوان / ص ١٠٤ .

ألا هل أتى غسان عنا ودونهم من الأرض خرق سبره متتبع^(١)

ويقول فيها :

وفينا رسول الله نتبع أمره
ضربناهم حتى تركنا سراتهم
فخرت عليّ ابن الزبيرى و قد سره
فسل عنا في عليا معد وغيرها
إذا قال فينا القول لا نتطلع
كأنهم بالقاع خشب مصرع
لكم طلب من آخر الليل متبع
من الناس من أخزى مقاما وأشنع^(٢)

٤- الرثاء :

لكعب شعر كثير في الرثاء خاصة رثاء النبي ﷺ والأبطال المسلمين الذين وقعوا صرعي الأحداث واستشهدوا في الحروب و الغزوات .
والحق أن كعبا قد ذرف دموعا سجالا سخينة علي النبي ﷺ وعلي هؤلاء الأبطال وقد كان في الرثاء - كثيرا ما يعدد المناقب ويذكر الشمائل ويجلي المصيبة والخطب الجلل ، يقول راثيا النبي ﷺ .

يا عين فابكي بدمع ذري
وبكي الرسول وحق البكا
علي خير من حملت ناقة
ويقول في مقطوعة أخرى :
ألا انع النبي إلى العالمينا
ألا انع النبي إلي من هدى
لخير البرية والمصطفى
عليه لدي الحرب عند اللقا
وأتقى البرية عند التقى^(٣)
جميعا ولاسيما المسلمينا
من الجن ليلة إذ يسمعونا^(٤)

ويقول في رثاء سيدنا حمزة :

(١) الديوان ، ص ٥٨ .

(٢) الديوان ، ص ٥٩ - ٦٢ .

(٣) الديوان / ص ١١١ .

(٤) الديوان / ص ١٠٧ .

بكت عيني وحق لها بكاها
وما يغني البكاء ولا العويل
علي أسد الإله غداة قالوا
أحمزة ذاكم الرجل القتل^(١)

وله إلي جانب ذلك رثاء حار في شهداء مؤتة ورثاء دام حزين في سيدنا
عثمان بن عفان .

موضوعات أخرى :

ولكعب بالإضافة إلي ذلك أشعار أخرى في موضوعات غير ذلك مثل
الوصف والحكمة والوعظ والدعوة .

أبرز السمات الفنية لشعر كعب :

اتسم شعر كعب عامة بأن القصيدة سواء أكانت ذات موضوع واحد
أم متعددة الموضوعات قد خلت من المقدمات التقليدية المعروفة ومن ثم
اتسمت القصيدة عنده بالوحدة العضوية وتلاحم الأجزاء والعاطفة الواحدة
التي تربطها فجاء ذات جو نفسي واحد .

وأما المعاني فقد جاءت معاني إسلامية خالصة حيث إنه تأثر بالإسلام
إلي حدود بعيدة جدا .

واتسم الخيال عنده بالحرارة والانسياب ، والتقط معظم الصور من
الأحداث والغزوات والحروب والبطولات .

وأما الأسلوب فقد جاء متأثرا فيه بالقرآن الكريم والحديث النبوي
الشريف مطبوعا منسابا معبرا أصدق تعبير عن المعاني والموضوعات التي
طرقها .

وأما الموسيقى فكانت ملائمة للموضوعات أيضا فقد جاء كثير من
القصائد مصبوبا في بحور الطويل والكامل والبسيط والوافر ، وهي
بحور لها تفعيلات تتسع للموضوعات الجادة التي عبر عنها .